

غادرنا بتاريخ 30 يناير 2010م...

# 6 سنوات على رحيل فارس من فرسان القصيدة النبطية عبدالله حماد

■ الوسط - جعفر الجمري

□ اكتفت ساحة الشعر الشعبي في مملكة البحرين بحفل التأبين الأول لرحيل الشاعر النبطي البحريني المتميز، المغفور له بإذن الله تعالى عبدالله حماد، الذي غادرنا قبل سنوات، وتحديداً في 30 يناير/ كانون الثاني 2010، بعد معاناة مع مرض لم يممه طويلاً.

حماد الذي لفت الأنظار إليه منذ محاولاته الأولى، ومنذ نشر نتاجه الأول، أصبح - مثله مثل كثيرين من مبدعي أوطاننا - لم يكن النسيان ليستثنيه وسط جغرافية أبرز مواهبها النسيان. نسيان الذين كانوا القيمة - وما زالوا - والجرأة في الذهاب إلى الحياة كما النص بوعي كبير، والتزام يبعث على الضجر بالنسبة إلى كثيرين. الالتزام بالمعنى الحقيقي لتلك الحياة، من دون انفصال قيمة ذلك المعنى عن قيمة النص ومعناه بالضرورة.



عبدالله حماد



بدر الدوسري



علي عبدالله خليفة



محمد الجلواح



إبراهيم المقابي

إسماعيل عبدعلي.  
الشاعر علي عبدالله خليفة رأى في الشاعر حماد رجلاً بسيطاً «ولكنه كان كبيراً في معناه وأخلاقه هذا الشاعر يعتبر ففده خسارة وطنية لأنه من الرجال الكرام مع النفس مترفع عن الصغائر.. يتحلى بروح وطنية، وسيرة عطرة».

أما الشاعر بدر الدوسري، فذهب في اتجاه المجاز، رابطاً بين المكان (دار كليب)، وبين انتماء الشاعر إليه قائلاً: «إن الشاعر لا يموت، مبدئياً بسلام يمتد من مدينة الشعراء دار كليب بن وائل التغلبي إلى كل بقعة لاستسبها حروف الشاعر عبدالله حماد وقصائده». مضيفاً «حين يرسل شاعر بحجم عبدالله حماد ينقص الجمال في الحياة، حين يرسل شاعر المسافات تخف كثافة الليل في الشعر والحياة، حين يرسل شاعر مثلث الروتين تصيبنا الوحشة بنصال الرماة، وحين يرسل لا نملك إلا الدعاء له حتى آخر دمة وآخر صلاة، حين يرسل شاعر تحبه اللغة تقل المعاني وتفقد الكلمات دروبها إلى النقاء، حين يرسل أجمل وأتقى الأصدقاء... ينضج دمع تربي بالكاء».

فيما قال الشاعر محمد الجلواح في كلمته التأبينية: «لقد عشت معه أفضل فترات سيرتي الشعرية وكان أن اكتسبت رضاه على مستوى الذائقة الشعرية وكان هذا الرضا بالنسبة لي وساماً أحمله وأعتز به».

يكاد أكثرهم أن يراحم بعض المخلصين الجُمركيين. لحياتك الأخرى مذاق ورؤية وحصنة وقيمة واستثناء تُعَبِّطُ عليها جميعاً، وأنت أهل لكل سمو.

## الرحيل ونقص الجمال

الأصدقاء الذي أُتُوهُ وقتها لم ينل النسيان منهم شيئاً، ربما لأن الغياب مازال أخضر كروحه. ربما لأن نصه الوثاب وبكل الحيوية التي يفاجئ بها قراءه، كان قادراً - وما يزال - على الحيلولة دون أن يتأبد ذلك الغياب، وأن يكون عصبياً عليه.

صحيفة «الوسط» كانت مواكبة لأسمية التأبين الذي أقيم في مركز كانو الثقافي، بتاريخ 11 مارس/ آذار 2010، وتولى تغطيته وقتها الزميل حبيب حيدر الذي أشار فيها إلى أنه «يرحل شاعر الذهاب عميقاً في اللغة والحياة عبدالله حماد باتت القصيدة الشعبية تعيش فراغاً لا يسده الاستعراض الأسبوعي من النصوص التي جلها فارغ ولا يحمل مدلول حياة وحيوية. كان شاعر المفارقات والوحشة والأمل والألم بامتياز».

الأسمية شارك فيها كل من: علي عبدالله خليفة، بدر الدوسري، وجعفر الجمري (بكلمة تأبينية ألقيت بالنيابة) محمد الصيادي، محمد الجلواح، أمير هلال، إبراهيم المقابي، فيصل المريسي، جعفر المرخي،

## حذاء ووحشة مدى

لم يُقدَّر لي أن أكون حاضراً أمسية التأبين وقتها، ولأن الزمن كان محاصراً بعاطفة الغياب، كما هو حال أصدقائه، أثرت الكتابة بعيداً عن المديح السطحي الباعث على الأذى. بعيداً عن الرثاء الرث. أثرت أن أراه... أتأمله من بعيد/ قريب. ألا تكون صورته لصق العين، فلن تتيح الوضعية تلك رؤية أساساً. كان الغياب هو النص الذي يجب الانتصار عليه بعد رحيل حماد. هل تمكنا من ذلك أكثرنا لم يستطع: بل على العكس، ثمة من لم يحتج أساساً لمناسبة رحيل مثل ذلك كي يتماهي مع النسيان، ويكون أحد رعاياه. كان يحضر توهم الغياب كي ينسجم مع حضوره الأكيد والضروري يوماً ما!

كتبت وقتها، نتحدث عن الغياب كأن لا أحد هنا. نتحدث عنه باعتباره انصلاً مادياً عن أرواحنا ربما، وإلا ما الذي يجعل تلك الحاسة حاضرة بهذه الشراسة المُخرجة أخلاقياً؟

الذين نحهم يرفضون دائماً أن يكونوا وراء ذاك رثاء. إنهم ذاك رثاء التي كثيراً ما تصاب بالغضب، ونتأكد من عافيتها حين يكون الذين نحهم أمامنا كأنهم - بل هم كذلك - يسهرون على درسيهم اليومي. ليس لنا فحسب: بل للحياة نفسها، وخاصة حين يكون الأحياء من الطراز الذي يأتي إلى الحياة بغفوية بالغة، ويعيشها بغفوية، وحين يدخل في ورطته الجميلة (الشعر) يذهب إليها بغفوية بالغة أيضاً.

لم يكن شاعر مساحات مؤجرة كما تُؤجَّر مصاطب في الأسواق الشعبية: إذ الذكرة الجمعية الاستهلاكية تذهب وفق ذلك المفهوم إلى إمداد القيمة. كان شاعراً من طراز فريد ومُبرِّك ومُحَرِّج وجارح وصاعق وراعي وبارق، وفي النهاية، كان بسيطاً كالماء، مفعماً بالأنس، كجداً بدوي في وحشة مدى، وشيخ كلاً وتناسل سراب. كان مفعماً بحريّة استثنائية أيضاً، لا عبّر غنيمته الدواوين، لأنه كان يعي مقولة العرب قديماً: «ما كُتِبَ قُرٌّ وما حُفِّظَ قُرٌّ». كان يُقَرُّ برفضه واختلافه، ولكن بأخلاقية عالية، وسمو ملفت، وحين ينتهي من كل ذلك، يتفقد نصه المؤجِّل، إما لفُرط مرض أراد أن يكون سراً مغلقاً على الأصدقاء كي لا يوسَّع رقعة وحشيتهم وعناهم فارتأى أن يصادر حصّتهم من تلك الوحشة والعناء بنبل بالغ. يضغنا أمام قيمة أخلاقية ملفتة قبل أن يضغنا أمام قيمة إبداعية استثنائية، من دون أن يصرح بالقيمتين معاً.

نفتقده في ظل هُزْر بالجملة، في ظل متطفلين على الإيقاع، عدا التطفل على الشعر، في ظل مخلصي نصوص

حماد الذي أبصر النور في قرية دار كليب، وهي من المواقع التي تؤكد أكثر المصادر المتوافرة أنها كانت مسقط رأس الشاعر القتيل طرفة بن العبد، يعد واحداً من أهم شعراء النبط والشعر الشعبي في مملكة البحرين، بقدرته على الإمساك بدقة السبك وجمال اللغة: علاوة على حدودها المفتوحة على التأويل، وعدم الاستسلام للنمطية التي رافقت النظر إلى القصيدة النبطية باعتبارها منغلقة على البيئة الواحدة، والأفراد الذين تتوجه إليهم، مع غليظ اللفظ ووخشيته مما يمتلئ به قاموس تلك البيئة - وخصوصاً إذا ما وقفنا على النماذج التي تحاول جاهدة - من دون أن تنجح دائماً - من أجل محاكاة النماذج التي تم تكريسها في تراث القصيدة النبطية منذ عقود طويلة.

سبق أن تناولت كتابة سابقة، ومن خلال ملفات تم تخصيصها للأصوات الفاعلة في الشعر النبطي والشعبي في مملكة البحرين، نشرت على صفحات ملحق الثقافة الشعبية في صحيفة «الوسط»، وتحديداً في ملحق «رياضان» الذي تحول بعد ذلك على صفحة أسبوعية، لم يطل بها الزمن، أقول سبق أن تناولت كتابة سابقة تجربة حماد، في محاولة لتقديم مقاربة لمشروعه، بعيدة عن الارتجال وحال الانطباع الذي وسم كثيراً من القراءات التي ركزت على الموروث الشعبي، وخصوصاً الشعر.

## شاعر التأمل بامتياز

تخصت تلك الكتابة جوانب فنية لم يكن بمقدور تلك القصيدة أن تأخذ مكانها من الصدارة في مشهد القصيدة النبطية والشعبية لولا توافر قصيدته على بنية نصية، كثيراً ما تكون غير محددة سلفاً، بل تفرص الموضوع (موضوعة القصيدة) واستواء الحالة الشعورية ونضجها، الاتجاه الذي يشكل تلك البنية وإيقاعها ومفرداتها التي تبدأ في الانهيار بغفوية بالغة يمكن تلمسها في العديد من قصائده.

في الكتابة نفسها التي نشرت في «الوسط» لمقدم هذا التذكير برحيل الشاعر حماد إشارة إلى أن الشاعر حماد «يكاد يكون واحداً من الشعراء القليلين في مملكة البحرين الذين تشغل تفكيرهم وهاجسهم الموضوعات التي تكتنز بمساحات من التأمل، موضوعات ترتبط بالوجود والنفس، وتشخيص المواقف، في الوقت الذي يكون فيه أبعد ما يكون عن الحالات العظيمة بانحيازه لمثل تلك الموضوعات وكأنه يستقلها. وعلى رغم تميز تجربته بالمساحات أنفة الذكر، إلا أنه ظل وفياً لرومانسية ورهافة لا يمكن تجاهلها وغض الطرف عنها في كثير من موضوعاته المتنوعة»، ويمكن القبض على تلك الرهافة من دون ابتذال وتسطيح في الوقت نفسه.

نقرأ في إحدى قصائده:  
ما زادني سرور ورد (القطف) والوانه  
كثرة سروري من جيوش غزاهما فرد  
أصبحت والكون يحصي قفول بيانه  
وامسيت وقفول بيانه تعيد الجرد  
تشبه (تجراً) حروفي شمس نسانه  
مغمور من عاش (كلمه) ما لمسها سرد  
وذلك ما يعيدنا إلى استحضار أو استدعاء تلك الكتابة التي أضاعت مواضع من اكتناز نصوص حماد بالتأمل، بحيث يحق لنا أن نسميه بالشاعر الوفي لتأمله، ففي كثير من قصائده يتحول التأمل بالنسبة له إلى لعبة صعبة وممتعة في نفس الوقت، ويكشف عن صعوبتها تلك المزوجة المدهشة بين الصورة والمفردة، والنقيض لهما، وما تحققت تلك المزوجة من متعة لدى المتلقي لنصه، ما يدفع كثيرين إلى تأجيل وأحياناً استبعاد الانشغال بالبحث واللهات وراء المباشر من المعنى. بعد كل ذلك، يمكن القول، إنه شاعر التأمل بامتياز.

## خيول الفكر\*

إهداء أول للصبر... وثنان لبدر الدوسري... وآخر للآتي.

### شعر - عبدالله حماد

□ اطلق خيول الفكر... لمعانق الريح  
وابعث بنبخك... روح فكره قتيلة  
واثبت أكيدته... في زمان التراجيع  
واشعل حروفك... في ظلامي فتيلة  
طفلة شعورك... لوئنتها التجاريح  
تنزف وفسا... بنت الأصايل أصيلة  
يا ليل وأن طاحت... نجومك مذابيح  
للفجر غنوة ثار... تغزي قبيلة  
اهطل وفسا... بعض الجفا منك تجريح  
يا غيم صمتك... بحرنا ما يشيلة



اللوحة للفنان السعودي ناصر الضبيحي

أنبض وانسا... ما جيت طَلَابْ توضيح  
جيتك أدوق اثممار... فتره بخيلة  
ذل الحكى... لو يملك بعض تصريح  
ظعن الأمل يعلن... مراسم رحيلة  
تدري النهار أحيان... يحتاج تلميح  
والليل لولا اللون... ما عاش ليلة  
لا تندمش لوقلت لك... جيت تصيح  
في طقس مايل... زاده الوقت ميله  
تاه السؤال... ابمهزله تقوم وتطبخ  
والوضع حايبر... بين قيده وسبيله  
سافرت مسرح... فكرتي لك مع الريح  
وردت والفكره... بروحي قتيلة

\* من ديوان «المسا... فات» الذي فاز بجائزة أجمل ديوان العام 2001